الاسراء

في مجال الدعوة

إلى

القرآن

للدكتور محمد البهي

*** ((الاسراء)) بالرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، فيما يذكره قول الله تعالى : ((سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام (فى مكة) الى المسجد الأقصى (فى أرض كنعان أو الشام) الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، انه هو السميع البصير)) .. هو نقله الى مكان الأحداث الكبرى فى تاريخ الرسالة الالهية . وهى أحداث الرسل المتتابعة الى بنى اسرائيل فى أرض الله التى بارك فيها ، وهى أرض كنعان أو الشام . وذلك ليكون عليه الصلاة والسلام على بينة من تحقيق وعد الله فى جزائه للمؤمن والكافر بالرسالة التى يوحى بها الى رسله .**

فقد بدئت سورة الاسراء — أو سورة بنى اسرائيل ، كما تسمى أيضا — بأمر الاسراء . والاسراء على أى نحو هو : الالتقاء مع مشاهد الاحداث الدينية التى تجسم الواقع التاريخى لسير الرسالة الالهية فى هذه الأرض المباركة . وهى أحداث امتدت فى الزمن الى عدة مئات من القرون ، وفى مواجهة عدد كثير من الأنبياء والرسل ، وتقلبت بين التتبع والاضطهاد مرة والسيادة والسيطرة مرة أخرى : لشعب — هو شعب بنى اسرائيل — تقلب بين المادية والروحية ، والكفر والايمان ، والاصرار على الخطيئة واقتراف الجريمة أحيانا عديدة والبعد عنها والاستكانة والرجوع الى الله حينا آخر .

وقيل فى شأن الاسراء : انه وقع قبل الهجرة من مكة الى يثرب بسنة . ويروى عن أنس والحسن : أنه كان قبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام .

كما قيل : انه وقع فى اليقظة فأسرى ، كما عرج بروحه . ويروى ذلك عن معاوية وعن عائشة . وقيل : انه كان فى المنام : رؤيا رآها . ويروى ذلك عن الحسن (١) .

فاذا نقل الرسول عليه الصلاة والسلام الى مكان الأحداث الدينية التاريخية التى وقعت فى بنى اسرائيل على أرض كنعان ، وعرض عليه عظماء الرسل فى تاريخ الرسالة .. عرض عليه موسى ، وعيسى ، وابراهيم ، وتتابع عليه الوحى فى القرآن بأهم الأحداث التى وقعت على هذه الأرض .. فانه عليه الصلاة والسلام لا يعيش هذه الأحداث حية فقط ، وانما مع ذلك تطمئن نفسه اطمئنانا كاملا الى نصر الله اياه فى رسالته ضد المعارضين من الماديين . سواء : أكانوا من المعارضين المشركين بمكة وهم أقل شأنا ، أم أكانوا من اليهود وقد تمرسوا على

المعارضة للايمان بالروحية الانسانية التى تدعو اليها رسالة الله ، كما استمرأوا المادية وأشربوا حبها فى نفوسهم وفى دمائهم ، وتوارثوها فى أجيالهم العديدة . ولذا كان مصيرهم فى الحياة مقترنا بالمذلة والهوان . . الى يوم البعث : « فلما عتوا عنه ، قلنا لهم : كونوا قردة خاسئين (أى أذلاء محتقرين) . واذ تأذن ربك (أى اذ علم ربك) ليبعثن عليهم الى يوم القيامة : من يسومهم سوء العذاب ، ان ربك لسريع العقاب ، وانه لغفور رحيم . وقطعناهم فى الأرض أمما : منهم الصالحون ، ومنهم دون ذلك ، وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون . فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب : يأخذون عرض هذا الأدنى (أى يتمسكون بالماديات الدنيوية) ويقولون سيغفر لنا (أى ومع ذلك يدعون أن الله سيغفر لهم اتباعهم واستغراقهم فى ماديات الحياة) وان يأتهم عرض مثله يأخذوه (أى ولا يتورعون عن الانغماس مرات أخرى فى ماديات الحياة ان واتتهم . فاتجاههم فى الحياة اتجاه مادى ، مهما ادعوا : أنهم ذاكرون الله وراجعون اليه فى فترة ما . ولذلك فعقاب الله لهم بالمذلة والهوان مستمر طالما لم يعودوا الى الروحية الانسانية) : عسى ربكم أن يرحمكم ، وان عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) » (٢) .

ويروى فى اسراء الله لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام الى أرض كنعان ، عنه صلى الله عليه وسلم ، عن أبى هريرة قوله : « لقد رأيتنى فى الحجر (فى حجر اسماعيل بالكعبة) وقريش تسألنى عن سراى فسألتنى عن أشياء لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثله قط ، فرفعه الله الى أنظر اليه (أى فرفع بيت المقدس أمام نظرى) ما يسألونى عن شىء الا أنبأتهم به . وقد رأيتنى فى جماعة من الانبياء :

فاذا موسى قائم يصلى ، فاذا رجل ضرب (أى نحيف) جعد (أى شعره مجعد) كأنه من رجال : شنوءة .

واذا عيسى بن مريم عليه السلام قائم يصلى ، أقرب الناس اليه شبها : عروة بن مسعود الثقفى .

واذا ابراهيم عليه السلام قائم يصلى ، أشبه الناس به صاحبكم (يعنى نفسه عليه السلام) .. فحانت الصلاة فأممتهم . فلما فرغت من الصلاة قال قائل : يا محمد ! : هذا مالك ، صاحب النار ، فسلم عليه : فالتفت اليه فبدأنى بالسلام » (٣) .. وهذا المشهد للرسل الثلاثة العظام ، مع امامة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام لهم فى الصلاة :
ينوه بمكانته أولا بين الرسل جميعا ، كما يبرز ثانيا : أن رسالة القرآن باكتمال دين الله بها .. تنتهى أدوار الرسالة الالهية الى البشرية .

* فاذا نزل الوحى فى القرآن — بعد اسراء الرسول عليه الصلاة والسلام بالروح أو فى الرؤيا الى أرض كنعان — بأحداث رسالة موسى والأنبياء والرسل بعده الى بنى اسرائيل ، وبالأخص رسالة عيسى اليهم ، كما تقصه سورة الاسراء هنا .. فان ما نزل الآن يكون له من قوة الأثر فى النفوس للمشاهد المرئية على هذه الارض ، التى تعكس بدورها حياة اليهود المتقلبة ، وما جزاهم الله به من حسنات ، وما أوقعه بهم من عقوبات ، انتهت بتشريدهم فى الأرض واذلالهم على يد أقوياء يسومونهم سوء العذاب الى يوم القيامة .

وتجسيد تاريخ الأرض المباركة حينئذ كفيل بايقاظ البشرية والسادرين فى طغيان المادية ، وباعادة المجتمع الانسانى الى صراط الله ، وهو الصراط المستقيم .. صراط الهداية البشرية ، ان شخصته الأبصار فى موضوعية وفى غير تحزب :

* فقد ذكر الوحى فى القرآن : كتاب الهداية البشرية لبنى اسرائيل ، وهو كتاب موسى ، أو التوراة ، أو صحف موسى . وركز فيه على أنه لا ينبغى لهم اطلاقا أن يكون لهم سند فى الحياة سوى الله جل جلاله . فلا ما فى هذه الحياة من أموال ومتع مادية ، ولا ما فيها من أولاد ، ولا ما لها من مظاهر الجاه والقوة يصح أن يتخذ وكيلا ونائبا بحيث ينصرف ايمانهم الى ما سواه ، ويقصر اعتمادهم على غيره مما فى هذه الحياة الدنيا : « وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل : ألا تتخذوا من دونى وكيلا » (٤) .. ولكنهم ترددوا بين الايمان والكفر ، وبين الانصراف عن الله سبحانه ، والرجوع اليه . وقد سجل تاريخهم مع الرسالة الالهية حقبتين رئيسيتين تمثلان العصيان والانصراف عن الايمان بالله ، تحت التأثر بالمادية واتجاهها فى الحياة ، حتى لم ينالوا فيهما من الرسالة فحسب ، وانما نالوا أيضا من الرسل الذين كرروا الدعوة فيهم اليها .

« وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب (أى أوحينا الى بنى اسرائيل فى التوراة) لتفسدن فى الأرض مرتين ، ولتعلن علوا كبيرا (أى وليشتد طغيانكم بما يكون لديكم آنئذ من قوة مادية وعددية) » (٥) .

الحقبة الأولى : هى تلك الحقبة التى أنذرهم فيها : النبى زكريا .. بعقاب الله على فسادهم وعبثهم وبعدهم عن الايمان بالروحية الانسانية التى يحمل عليها الايمان بالله . ولم يأبهوا لانذاره ، واستمروا فى غيهم وضلالهم وتحديهم ، وقتلوا نبيهم هذا . فسلط الله عليهم البابليين على عهد بختنصر سنة ٥٨٦ قبل الميلاد ، ودخلوا عليهم بلادهم وبيوتهم ، واقتحموا معبدهم الذى بناه سليمان وهو بيت المقدس ، وأتم بناءه سنة ١٠٠٤ ق.م وساقوا رجالهم ونساءهم فى الأسر . وأصبحوا بهذا الغزو مغلوبين على أمرهم ، أذلاء فى أسرهم وبعدهم عن ديارهم : « فاذا جاء وعد أولاهما (أى حل وعد المرة الاولى فى عقابهم من قبل الله) بعثناعليكم عباداً لنا أولى بأس شديد (وهم البابليون قادمون من العراق وقد كانوا أصحاب بطش فى قوتهم المادية فسلطهم الله عليهم) فجاسوا خلال الديار (أى دخلوا الديار واقتحموها كما اقتحموا معبد سليمان وهدموه) وكان وعدا مفعولا (أى وبذلك تحقق وعد الله لبنى اسرائيل بعقابهم على كفرهم وماديتهم) » (٦) .

وبعد هذا الأسر والاذلال ، عقوبة لهم من الله ، أعطاهم فرصة ثانية ومكنهم من العودة من الأسر عند البابليين .. الى أوطانهم فى كنعان سنة ٥٢٠ ق.م. أى بعد أكثر من ستين عاما على الأسر والبعد عن الديار . ويذكر القرآن الكريم قصة هذا التمكن من استرداد سيادة أنفسهم فى سورة البقرة ، فيما تذكره هذه الآيات : « ألم تر الى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبى لهم (هو صمويل) : أبعث لنا ملكا نقاتل فى

سبيل الله قال : هل عسيتم ان كتب عليكم القتال : أن لا تقاتلوا ؟ قالوا : وما لنا الا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين ... الى أن يقول : فلما فصل طالوت بالجنود (أى خرج بهم متجها نحو بابل ، وطالوت هو الملك الذى عينه صمويل) قال : ان الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس منى (أى ليس من جنودى ومن رفاقى فى القتال) ومن لم يطعمه فانه منى ، الا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه الا قليلا منهم ، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده (لأنهم رأوا أعداءهم كثيرين بعددهم ، وأقوياء بعدتهم تحت امرة جالوت) قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا افرغ علينا صبرا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم باذن الله وقتل داود (وقد ظهر بشجاعته بين جنود طالوت) جالوت ، وآتاه الله (أى آتى داود) : الملك ، والحكمة ، وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس : بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » (٧) .

وتجمل آية الاسراء : « ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال ، وبنين ، وجعلناكم أكثر نفيرا (أى عددا) » (٨) .. أمر استرداد بنى اسرائيل هذه السيادة لأنفسهم ، وتحررهم من البابليين ، وعودتهم الى القوة المادية من أموال ، وبنين ، من جديد ، بعد الاذلال فى الأسر والبعد عن الديار والأبناء . فابتدأوا الحياة وأعادوا بناء المعبد ، ونفذوا عدة اصلاحات ، وبنوا اليهودية من جديد . وذلك على أمل : أن يرجعوا الى الله ويلتزموا بالسلوك الانسانى السوى . وعندئذ يحسنون فقط الى أنفسهم وحدهم : « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وان أسأتم فلها . »

والحقبة الثانية : وهى حقبة الخطيئة الأخرى .. خطيئة رفض رسالة عيسى والقصد الى قتله . فجازاهم الله على هذه الخطيئة باحتلال الرومان تحت زعامة تيتوس ابن الامبراطور فيسبيان سنة ٧٠ بعد الميلاد ، لديارهم . فحطم مصادر ثروتهم وقوتهم التى حصلوها بعد عودتهم من أسر البابليين ، ودخل معبد سليمان وهدمه هدما كاملا ، بعد أن أعيد بناؤه آخر مرة قبل ذلك فى عهد هيرود سنة ١٧ ق. م. من خلفاء الاسكندر : « فاذا جاء وعد الآخرة (أى فاذا حل موعد العقوبة الثانية) ليسوءوا وجوهكم (أى سلطنا عليكم أعداءكم ليشوهوا وجوهكم . ويقصد بتشويه الوجوه هنا : تحطيم كل مصادر القوة) وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة (أى وليدخلوا المعبد الذى اقيم فى المسجد الأقصى على طرف منه بعد فتح عمر بن الخطاب لأرض كنعان المباركة) وليتبروا ما علوا تتبيرا (أى وليزيلوا كل ما ارتفع من أبنية ازالة كاملة) » (٩) .. وبتحطيم مصادر الثروة ، وبهدم المعبد هدما كاملا ، تلاشى ما كان يملكه بنو اسرائيل فى أرض كنعان من قوى مادية ومعنوية ، وأصبحوا شتيتا كأقلية بين الشعوب الأخرى . ولكن ما زال هناك أمل لهم فى رحمة الله ، ان هم اتبعوا رسالة محمد عليه الصلاة والسلام : « عسى ربكم أن يرحمكم (أى لعل الله يهديكم

الصراط السوى عن طريق ايمانكم بالقرآن وبذلك يرحمكم الله) وان عدتم عدنا (أى وان عدتم الى الخطيئة فكفرتم برسالة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، كما كفرتم برسالة زكريا ، وبرسالة عيسى من قبل .. عدنا الى عقوبتكم وتسليط أعدائكم عليكم) » (١٠) .. فرسالة القرآن هى رسالة الهداية للطريق الأقوم ، فى الوقت الذى يبشر فيه المؤمنين به والذين يعملون الصالحات : بالأجر الكبير فى الآخرة ، بينما ينذر الذين يكفرون به وبالآخرة وهم الماديون : بالعذاب الأليم : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات : أن لهم أجرا كبيرا . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة : أعتدنا لهم عذابا أليما » (١١) .

● ●

ان الاسراء هو سبيل آخر من سبل الدعوة الى القرآن الكريم .. وسبيل آخر كذلك الى اطمئنان الرسول عليه الصلاة والسلام وتحمله فى شأن دعوته الى الحق .. وسبيل آخر أيضا الى التنويه بأمره فى مستوى النبوة والرسالة فى تاريخ الدعوة الى دين الله .

وان العبرة التى تستخلص من الوقائع والأحداث التاريخية التى تمت على أرض كنعان التى بارك الله فيها فى بنى اسرائيل .. هى عبرة حية ، وتعطى المبدأ الصادق الذى لا يتخلف وهو : أن الايمان بالله وحده ، هو وحده : مصدر النجاة ، ومصدر النصر والغلبة فى هذه الحياة : « قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله : كل من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين » .

والمسلمون — على عهد عمر رضى الله عنه — عندما دفعوا قوى الرومان الطاغية من أرض كنعان المباركة الى خارجها : لم يدفعوها الا بايمانهم بالله وحده ، فاذا أراد المسلمون اليوم استعادتها من أصحاب المادية اليهود .. فلا يستعيدونها : لأنهم من أبناء هذه الارض المباركة يوما ما ، ولا لأنهم أصحاب عتاد ثقيل أو خفيف فى القتال ، ولا لأنهم دربوا على حرب العصابات ، ولا لأنهم ماركسيون أو علمانيون ، ولكن فقط : لأنهم مؤمنون بالله .

والايمان بالله ليس سحرا . ولكنه : اخلاص فى سبيل المثل العليا ، وانكار للذات ، وصبر وتحمل ، وتضحية بكل متعة فى الحياة — حتى بالحياة نفسها .

ليس من مصلحتنا اليوم فى الصراع مع اسرائيل : أن نعدد لها التهمة تلو التهمة ، ونظل محجبين عن عوامل الضعف فينا . يجب أن نكشف عن عيوبنا أولا ، لنبعدها عن أنفسنا فى هذا الصراع .. يجب أن نستوثق بأننا مع الله ، قبل أن نستوثق من مناصرة هذه الكتلة المادية أو تلك الكتلة الأخرى المادية أيضا لحقنا بالقوة المادية أو المعنوية .. يجب أن نسلك طريق الايمان بالله ونتصرف فيه على ما ينبغى أن نفعله ، وما ينبغى أن لا نفعله ، قبل أن نعلن التبعية لهذا الفريق أو ذاك وهم جميعا من أعداء الله .

ان الصهيونية شر وبلاء وقد ساعدها الشيطان الأحمر والأبيض على السواء . فهل ناشدنا نحن عون الله وتأييده ؟ ..

---

(١) هذه أقوال وردت فى تفسير الكشاف حـ ٢ ص ٥٤٢ ــ المطبعة الشرقية : الطبعة الاولى القاهرة .

(٢) الأعراف : ١٦٦ ــ ١٦٩ .

(٣) فى رواية مسلم فى كتاب الايمان ــ التاج حـ ٣ . ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦ .

(٤) الاسراء : ٢

(٥) الاسراء : ٤

(٦) الاسراء : ٥

(٧) البقرة : ٢٤٦ ــ ٢٥١ .

(٨) الاسراء : ٦

(٩) الاسراء : ٤

(١٠) الاسراء : ٨

(١١) الاسراء : ٩ ، ١٠ .